

الأنثى ولعبة الشرّ في النص الديني المقدس: حفر في جذور الشرّ وصوره

زهرة الثابت

(كلية الآداب والعلوم الإنسانية / جامعة القيروان/تونس)

thzohra@gmail.com

في البدء كان العماء مقابلا للنور، وكان الشرّ ضديدا للخير، فإله الظلام أهرمان كان تقيض إله النور أهورمزدا والآلهة "أبيب" كانت في صراع مع إله الشمس "رع" الذي لا ينفك عن محاربتها وشياطينها السوداء والحمراء إلى أن يهزمها قبيل الصباح فيعود إلى الشروق. وبرومثيوس يسرق النار المقدسة ويخدع الآلهة والعمالق التيتان (Titanes) يزعجون الآلهة فيقضي عليهم زيوس (Zeus) أما "تيامات" آلهة الماء الملح فتجمع جيشا من التنينات الهوجاء والأفاعي السامة الضارية لتحارب الآلهة الشرعيين الذين يحفظون النظام في الكون ويوفرون الرخاء للعباد¹.

ثم أصبح الشرّ ملازما للإنسان كالظلّ يتبعه لأنه جبلة فيه، إذ العدوانية قابعة في داخله لذلك كان يحقد ويغضب ويسفك دم غيره ليثأر لنفسه وكان يراوغ ويдахن ويمكر مكرًا شديدا. وكان الشرّ السلاح الذي لا بدّ منه للفرد حتى يضمن توازنه بين البشر ويحمي ذاته داخل المجموعة. إذ هو أبداً يعتقد أنه في خطر وفي غير مأمن من ذببية الآخر، وأنّ شياطين لعينة وأرواحا شريرة خبيثة تهدّد كيانه، وأنّ ما ينتابه من مشاعر الخوف والفشل وما يعتوره من إحساس بالألم والشقاء والنصب والمرض والموت وغيرها من صروف الدّهر إن هي إلّا شرور تتربّص به بين الفينة والأخرى جرّاء غضب الآلهة عليه. لذلك راح الذكر يغيّر على الآخر فيسلبه متاعه ويغتصب نساءه ويرديه قتيلا وراحت الأنثى هي الأخرى تجيد لعبة الشرّ وتتفنّن فيها كأحسن ما يكون التفنّن.

¹ للاطلاع على خفايا هذه الأساطير راجع قاموس الآلهة والأساطير، ترجمة وحيد خياطة، دار الشرق

العربي، بيروت/ لبنان، الطبعة الثانية، 2000 وانظر أيضا :

Jean Chevalier & Alain Gheerbrant, Dictionnaire des symboles, éditions Robert Laffont

ولعلّ القارئ يرصد هذا الأمر لو أنّه أجال النظر في نصّ "العهد القديم" حيث تتبدّى الأنثى صانعة الشرّ وراعيته الأولى. فحوّاء تغري آدم بالأكل من الشجرة المحرّمة فتحرمه نعيم جنّة الخلد، وساري توغر قلب إبراهيم على هاجر فيهجرها تاركا إياها شريفة في الصحراء، وزوجة فوطيفار تغوي يوسف فتغلّق عليه الأبواب، وبثشبع تتعرّى أمام داود فيهوى صريع حبّها ويرتكب المحظور، وابنتا لوط تضطجعان مع أبيهما بعد أن تسقياهنّ الخمر، ورفقة تحتال على إسحاق وتستغلّ عماه لينال عيسو البركة بدل يعقوب، ودليّة تكيد لشمشون فتوقع به وتنتزع سرّ قوّته، ويهوديت تغوي قائد الجيش وتقطع رأسه لتنقذ شعبها وإزابيل زوجة آخاب تتآمر على نابوت اليزريعي فتقتله وتستولي على كرمه، أما أستير فتتحايل على الملك أحشويروش وتقتل هامان من أجل خير شعبها اليهودي وضمان مصالحه.

هكذا إذن غدا الشرّ الذي اقترفته الأنثى في نصّ "العهد القديم" ألوانا وغدت الأنثى خبيرة به وبأساليبه إلى حدّ أضحي فيه الشرّ فناً وأضحّت فيه الأنثى سيّدة للفساد والسوء ترعاه وتحذقه على الوجه الأكمل، بحيث يمكن تمييز صور متعددة للشرّ نحصرها في الإغراء والإغواء والغيرة والحسد والخداع والتحيل والقتل. فماهي تجليات الشرّ وماهي أساليب الأنثى في إنتاجه؟ وإلى أي مدى يمكن التسليم بأنّ الأنثى قد أسهمت عبر ألوان الشرّ تلك في صناعة خطاب عن الشرّ؟

● في ضيق مصطلح الشرّ (لغويا/ فلسفيا/ دينيا)

الشرّ لغة "السوء والفعل للرجل الشرير"¹، والشرّ ضد الخير، أما من حيث معناه الفلسفي فالشرّ يطلق على "العدم أو على نقصان كل شيء عن كماله"². علما وأن الشرّ قد بات مشكلة فلسفية تباينت بصدها الآراء والمواقف بين الفلاسفة وعلماء الكلام، فالمعتزلة على سبيل المثال تعتبر الشرّ والظلم والضرر والفساد مفاهيم تدخل تحت باب واحد هو القبيح، وعلى الرغم من الاختلاف الحاصل بين المعتزلة فيما بينهم فإنّ ما يستقر عليه الرأي أنّ الشرّ "فعل مخصوص يفعل المكلف

¹ ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت/ لبنان، الطبعة الثالثة، 1999 م.

مادة "شرّ".

² جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس، 2004،

على خلاف ما ينبغي له فيكون مهلكا له في الدنيا أو في الآخرة أما عدا ذلك من مصائب أو أضرار تصيب الإنسان نتيجة الأمراض فليس شرا إلا من منظور الحواس والزمن المحدود الفاني وملاهما لا اعتبار له من منظور الآخرة"¹.

أما ابن سينا فيضبط مفهوم الشرّ انطلاقا مما لاحظته في الطبيعة من صور للشر تظهر من خلال ما ينتج عن النار من الاحتراق وما ينتج عن المطر من إغراق الزرع وعن الأنهار من إغراق طفل صغير وتنبيه أيضا إلى أن الشرّ أيضا كامن في الإنسان من خلال الأخلاق الرديئة والمفاسد وما يصيبه من شرور مثل الموت والشيخوخة والمرض وغيرها. وانتهى ابن سينا في كتاب "النجاة" إلى أن الشرّ "لا ذات له بل هو إما عدم جوهر أو عدم صلاح حال الجوهر"² وإلى أن الشرّ قد يكون مجاله طبيعيا أو أخلاقيا أو ميتافيزيقيا فهو القائل: "واعلم أن الشرّ على وجوه ، فيقال شر لمثل النقص الذي هو الجهل والضعف والتشويه في الخلقة ويقال شرّ لما هو مثل الألم والغم... ويقال شرّ للأفعال المذمومة، ويقال شرّ لمبادئها من الأخلاق... ويقال شرّ لنقصان كل شيء عن كماله ، وفقدانه ما من شأنه أن يكون له"³.

ويذهب الغزالي إلى أنّ الشرّ نقيض الخير وهو يعني عدم الوجود وعدم كمال الوجود لأن الخير مرادف للوجود والكمال والنظام⁴ . ويرى ريكور أن الشرّ هو إيذاء الآخر وإيلامه إذ يقول "إنّ فعل الشرّ هو دائما، بعنوان مباشر أو غير مباشر، فعل أذى للآخر، أي جعله يتألم"⁵.

أمّا من الناحية الدينية فقد جاء في معجم اللاهوت الكتابي أن الشرّ هو "كل ما يؤدي إلى المرض أو الألم بجميع أشكاله وبالأخص إلى الموت"⁶ . ويلاحظ متدبر

¹ محمد بوهلال، معضلة الشر بين علم الكلام والفلسفة، انظر الموقع الإلكتروني:

www.hakmah.org

² ابن سينا، النجاة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت. ، ص265.

³ ابن سينا، النجاة، ص 466 / 472.

⁴ انظر الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، دار ومكتبة الهلال، الطبعة الأولى، 1993 وتهافت الفلاسفة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1927.

⁵ بول ريكور، الإنسان الخطأ، ترجمة عدنان نجيب الدين، المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء، المغرب، ص 222.

⁶ نخبة من المختصين. معجم اللاهوت الكتابي، ص 334 . مادة "خير وشر"

الكتاب المقدس أنَّ مصطلح الشرِّ من العبارات الأكثر شيوعاً في هذا النص الديني ولعلَّ هذا الجدول البياني موضح لذلك :

نسبة التواتر	السفر
21 مرّة	التكوين
3 مرّات	الخروج
3 مرّات	العدد
4 مرّات	التثنية
3 مرّات	القضاة
7 مرّات	صموئيل الأول
6 مرّات	صموئيل الثاني
4 مرّات	الملوك الأول
2 مرّتان	نحميا
11 مرّة	أيوب
29 مرّة	المزامير
26 مرّة	الأمثال
11 مرّة	الجامعة
10 مرّات	إشعيا
18 مرّة	إرميا
4 مرّات	حزقيال
2 مرّتان	دانيال

¹ لاحظ أننا استفدنا في إنجاز هذا الجدول مما أثبتّه جورج بوست في "فهرس الكتاب المقدس" ، الطبعة الرابعة ، 1969 ، مادة "شر"

هوشع	3 مرّات
يوثيل	2 مرّتان
عاموس	3 مرّات
يونان	1 مرّة واحدة
ميخا	4 مرّات
حبقوق	1 مرّة واحدة
صفنيا	1 مرّة واحدة
زكريا	3 مرّات
متى	4 مرّات
مرقس	2 مرّتان
لوقا	1 مرّة واحدة
الرسالة إلى مؤمنى روما	6 مرّات
الرسالة الأولى إلى مؤمنى كورنثوس	1 مرّة واحدة
الرسالة إلى تيطس	1 مرّة واحدة
الرسالة إلى العبرانيين	2 مرّتان
رسالة يعقوب	2 مرّتان
المجموع	201 مرّة

واللافت للانتباه أن هذا المفهوم هو بالمرأة أعلق لكونها تجرؤ على أكل أبنائها سرّاً أثناء الحصار¹ ثم إنها الزانية التي تقود إلى الهاوية لأن "بيتها هو طريق الهاوية المؤدي إلى مخادع الموت"²، بل إنه قد ألقى بها داخل المكيال لأنها "هي رمز

¹ راجع التثنية 28 : من 56 إلى 58 و2 ملوك 6 : من 26 إلى 30

² الأمثال 5 : من 1 إلى 6 والأمثال 7 : من 6 إلى 27

الشر¹. فإذا كانت الأنثى على هذا النحو مما وصفنا فماهي ضروب الشر التي اقترفتها؟ وماهي أساليبها في تنفيذها؟

● صور الشر

✓ الإغواء (La fatalité)

إذا كان الشر في أصل معناه هو الفساد والعدم كما تبيننا ذلك، فإن القارئ لا يفوته أن يلاحظ ما يوجد من معاهد نسب بين الإغواء والشر، إذ يذكر صاحب اللسان أن الغي هو "الفساد"² والتغاوي هو "التجمع والتعاون على الشر"³. وإذن فالإغواء وجه من وجوه الشر وهو شر أعربت عنه تجربة حواء مع آدم، إذ أوقعت الأنثى بالذكر آدم وأغوته بمذاق الثمرة التي بدت "لذيذة للمأكّل وشهية للعيون ومثيرة للنظر"⁴، فناولته إياها "فأكل منها"⁵ لأن الثمرة كانت غذاء والغذاء "يثير لذة باطنية داخلية في الجسد ومعلقة فيه"⁶ على حدّ تعبير بارت.

وبذلك كان الفم شاهدا على الشر، إذ الفم تكلم فأعطى فاستشعر آدم شهوة لا قدرة له على ردّها، وبدا ضعيفا لا حول له إلا أن يذعن ويستجيب لإمرة أنثاه التي أعطت وهو أكل. والفم أيضا مذاق، فقد ألهب طعم الشجرة جسد آدم بسرعة فأيقظ فيه الإحساس بالجوع، إنه الجوع إلى معرفة الخير والشر بغية نفس الفوارق بين الفرد والإله أو قل نفس سلطة الأب، سلطة المقدس. فكانت الخطيئة ميلادا للشر، إذ أغوت حواء آدم فجعلته حاملا لثلمة بداخله بها يكتسب خاصيته الإنسانية ويمارس حضوره في الكون، وهي أغوت آدم أيضا فأورثته الشقاء بعد النعيم وغضب الإله بعد رضاه.

فكان الإغواء هو قاده الصراع بين آدم والمقدس، إذ بالشر أعلنت الأنثى حواء عن ميلاد العنف المحاكاتي (La violence mimétique) أي العنف والعنف

1 زكريا 5 : 8

2 ابن منظور- لسان العرب، مادة "غوى"

3 المرجع نفسه

4 التكوين 3 : 6

5 المرجع نفسه

6 رولان بارت، هسمة اللغة، ترجمة مندر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، الطبعة الأولى، دار

كنعان، دمشق، 1999

المضادّ بين الفرد والإله، فكان السقوط والطرْد من جنة الخلد وبذلك أضْحَى آدم ضحية المكيدة التي دبّرتها الأنثى بإيعاز من الحية وضحية وعيه بالشرّ وبضرورته لتقويض المقدس لأنه بالشرّ وعى آدم الفوارق التراتبية بينه وبين الإله وأنه لابدّ من زحزحتها حتى يحصل التماثل ف"ليست الفوارق هي التي تؤدي إلى المزاحمة الجنونية أو الصراعات المستديمة وإنما زوالها"¹. وعليه إذن فالإغراء في تجربة حواء حتمه الانشطار الحاصل بالداخل الذي جعل الذات ترى نفسها في تبعية للمطلق الذي سلبها إرادتها الحرّة حين طوّفها بأحكام الطاعة والانقياد، وحتمه أيضا الإحساس بالنقص ورفض الواقع المعيش أ وليس الشرّ هو "القدرة على إنكار القيمة المعيشة"².

هكذا إذن غدا الإغواء أداة الأنثى حواء لهدم صرح التواصل بين الفرد والمقدس، لأن آدم صار عبر الخطيئة عنوان الشرّ يعيش صداما مع غريزة حب البقاء والقدرة على فهم المقدس بما هو رمز للقوة والرغبة والعظمة وعقد مصالحة معه. وهكذا أيضا استحال الإغواء وسيلة الأنثى التي بها تؤكد طبيعتها الغريزية ف"تنتهك العرف الثقافي الحضاري الذي يقوم على فكرة الذنب بلا ذنب بأكلها من الشجرة، ولذلك فإن سلوكها هو حلم رومانسي للعودة إلى حالة سابقة، سابقة على النظام الجديد الذي يقوم على فكرة الحرام وبانتهاكها المحرم تقع في الخطيئة المعرفة ثقافيا"³. وبذلك يصبح الإغواء مبررا للسقوط ويصبح الشرّ محددا لهوية الأنثى ووصمة عار تحمل وزرها أبد الدهر.

✓ - الإغراء (La séduction)

حين تعييبها الحيلة تنبيري الأنثى باحثة عن أسلوب آخر للإيقاع بالذكر فتتعرض له بالجسد أو بالخمرة:

¹ voir René Girard, La violence et le sacré, éditions Grasset, 1972, p. 77

² voir Jean - Pierre Changeux & Paul Ricoeur, Ce qui nous fait penser : La nature et La Règle, éditions Odile Jacob, 1998, p. 298

والشاهد لبول ريكور فهو القائل:

«Pour moi, le mal est la capacité de récuser la valeur vie »

³ تركي علي الربيعو، الأسطورة إيديولوجيا الرجولة لتبرير ثانوية المرأة، الفكر العربي. عدد 64، نيسان- أبريل/ حزيران - يونيو، 1991. ص95.

❏ الإغراء والجسد : تقصد الأنثى عبر الإغراء إلى الشرّ قصداً إذ تتوسل بالكلام والزينة والجمال والعراء والرقص فتتجرد بذلك من أبعادها الإنسانية لتستحيل أنموذجاً شريراً أشبه ما يكون بالشيطان. ولعل زوجة فوطيفار وبثشبع وشبلوميث وابنة هيروديا من أعتى النماذج المعبرة عن قدرة الأنثى على صناعة الشرّ عبر الجسد.

فالتدبر لسفر التكوين يلحظ أن الأنثى زوجة ملك مصر كانت ترعى الشرّ إذ أغرمت ببيوسف لأنه كان بهي الطلعة فطلبت منه الاضطجاع معه محدثة بذلك شرخاً بداخله يجبره على تبادل المواقع في تجربة الحب، فيغدو راغباً ومرغوباً فيه في آن واحد. واستحال نداء الأنثى للذكر " اضطجع معي " كلاماً يفصح عن شهوة وعن رغبة في السيطرة أ وليس الإغراء إخضاعاً¹ ؟ إنه الإخضاع على الدخول إلى عرين الأنثى وإن كلفه ذلك اقتراف المحذور. وهو الإخضاع الذي ستحصل الأنثى بموجبه على النظرة التي ستولد فيها الرضى على أنها قادرة على أن تُراد، فيقع الذكر فريستها ويضحي في تبعية لها. فغاية الإغراء إذن تأكيد تفوق الأنثى على الذكر فهل أن أنثى التوراة امتداد لأنثى الزمن الأسطوري؟ ربما كانت تلك نية المدوّن الذي حاول أن يستلهم للأنثى ضرورة ترتبط بالشرّ وهذا ليس بالغريب إذا كان التقليد اليهودي منفتحاً على الثقافات المجاورة وإذا كان هو نفسه يحقر من شأن المرأة، هذه المرأة التي تبدّت في شخص زوجة فوطيفار أنثى جعلت من الإغراء لا وسيلة لإثبات أنوثتها وحسب بل آلية للانتقام، ناهيك أنها لما راودت يوسف عن نفسها وعزم على الهروب أمسكت رداءه لتتخذ حجة بها تدين الذكر يوسف فهي القائلة: " أَنْظُرُوا مَا جَرَى؟ هَذَا الْعَبْرَانِيُّ الَّذِي جَاءَ بِهِ زَوْجِي إِلَى الْبَيْتِ شَرَعَ يُرَاوِدُنِي عَنْ نَفْسِي. دَخَلَ غُرْفَتِي وَحَاوَلَ إغْتِصَابِي، فَصَرَخْتُ بِأَعْلَى صَوْتِي. وَعِنْدَمَا سَمِعَنِي قَدْ رَفَعْتُ صَوْتِي وَصَرَخْتُ، تَرَكَ رِداءَهُ مَعِي وَهَرَبَ خَارِجاً"². وبذلك غدا الثوب (الرداء) شاهداً على الشرّ وعلى الإفك إذ بالرداء سترج الأنثى العاشقة

¹ يقول سيبوني (Sibony) في هذا الصدد: « séduire c'est assujettir »

Voir Daniel Sibony, Le féminin et la séduction, éditions Grasset et Fasquelle, 1986, p.20

² التكوين 15 / 14 : 39

بيوسف في السجن وبالرداء أيضا ستزيف حقيقة جسد يوسف الذي يخفي العصمة والطهارة فيتحول إلى كيان يثوي الرجس والندس إذ هو جسد شاذ يقبل على الأنثى بنهم شديد غير آبه بنواميس المجتمع وقوانينه. هكذا إذن استطاعت الأنثى عبر لعبة الشرّ أن تتحكم بجسد يوسف فتشوهه وتتآمر عليه لأن منتهى ما تصبو إليه الانتقام بعد أن انقلب الحب كرها.

أمّا عن بثشبع فقد أضمرت الشرّ حين تعرت لتغتسل بالماء الذي سيجدد طاقتها ويمدها بالقوة والحياة فتغدو البؤرة الأكثر خطورة والتي ستشدّ داود إليها لأنها "سدرة مشتهاة، ملاذه الأمين، معطفه الجسدي، مسرح عملياته، فضاء تخيلاته ولغته التي يدون بها تاريخه الأرضي"¹، فيخترق جسد الأنثى الذي ينضح شهوة جسد داود إذ الماء وعد بالخلق والإخصاب، وعد بالحرث وتعاطي الجنس ولكنه جنس محظور لأن الشهوة أفضت بالجسد الراغب داود إلى حالة من التلاشي فأبقيته من غفوته وصارت سلطة اللاوعي متحكمة به، لذلك استدعى بثشبع التي لا ترى في جسدها إلا سلعة تُعرض ومادة تستهلك ليتمتع بمفاتنها وقد أسفرت عنها كما أسفرت البغي عن صدرها لأنكيدو لأن ما يفتن هو ما تحت الرداء، هو ما يظهر من تتأؤب الثياب من فروج وشقوق و"التعرية هي في حقيقتها تشوّق إلى مشاهدة فتحات وشقوق واللذة هي سدّ فراغات الجسد وملء شقوقه"². وعليه فالشرّ يكمن إذن في تربص الأنثى بالذكر وتبرّجها أمامه بسكب الماء رسالة إغراء له ودعوة إلى وليمة الجسد الحرام حتى يتعلّم فنّ المرأة فينجذب إليها ويتعلّق بها ثم يقضي وطره منها.

ولا تكاد صورة الشرّ في تجربة "بثشبع" تختلف عن نظيرتها في تجربة "سيلوميث" عشيقة سليمان إذ تتلخّص لغة الشرّ أيضا في الاستعراء وإتيان الجسد بعد التجمّل والتزيّن. وإذا كانت غاية الشرّ مع "بثشبع" اختراق المحظور فإن غاية ما تصبو إليه "سيلوميث" في علاقتها بسليمان الشبق والمتعة الجنسية. إذ يظفر القارئ لـ "نشيد الأناشيد" بأنثى تؤمن بجسدها وبقدراته ولا تراه إلا طعاما

¹ إبراهيم محمود، وإنما أجسادنا، ص 222.

² علي حرب، لعبة المعنى، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1991، ص 127.

لإغواء الذكر سليمان، لذلك تنبري كاشفة عن مفاتها (الخدان، العنق، العينان، الشعر، الأسنان، الفم، الأنف، الشفتان، النهدان، السرة، البطن، الفخذ، القدمان) من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين، لأنها لا ترى إلا جسدها تحقيقا لكيانها، هذا الكيان الذي يفصح عن شبقية تنغرس في حركاتها وتبرجها وتزيينها لأنها عاشقة و"العاشق هو من يريد امتلاك المرء الذي يرغب فيه وهو من يريد أن يمارس نفوذه على روحه وعلى جسده بل يريد أن يكون محبوبا دون غيره وأن يسكن وأن يقهر هذا الروح المرغوب فيه"¹.

إن الأنثى ههنا تبطن جسعا لا يردّه عن غايته رادع، بل نهما في اللثم فهي طالبة على وجه الاستعلاء "لِيلْتُمْنِي يَقْبَلَاتِ فِيهِ، لِأَنَّ حَبْكَ الَّذِي مِنَ الْخُمْرِ"² ونهما في الجنس فهي المنشدة: "حَبِيبِي بَيْنَ الْفَتَيَانِ كَشَجَرَةٍ تُفَاحُ بَيْنَ أَشْجَارِ الْوَعْرِ، تَحْتَ ظِلِّهِ إِسْتَهَيْتُ أَنْ أَجْلِسَ، وَثَمَرُهُ حُلُوٌ لِحَلْقِي"³، لتستطرد قائلة: "وَمَا كِدْتُ أَتَجَاوَزُهُمْ حَتَّى وَجَدْتُ مَنْ تُحِبُّهُ نَفْسِي فَتَشَبَّهْتُ بِهِ وَلَمْ أَطْلُقْهُ حَتَّى أَدْخَلْتُهُ بَيْتَ أُمِّي وَمَخَدَّعَ مَنْ حَمَلْتُ بِي"⁴. فهي تبحث عن المتعة وتتهالك فيها ولا تستحي لذلك تزلف بجمالها الأخاذ نحو الذكر المرغوب فيه عن طريق الوشم والزينة التي مادتها الحناء⁵ معلنة بذلك عن صخب الجسد، إذ الوشم في حقيقته هو" نداء الرغبات المكبوتة وشهوات نادرة"⁶، والوشم أيضا كتابة على الجسد وتحويل له وخلق مغاير للخلق الإلهي وذاك ممكن الشر. إذ منتهى ما تنشده الأنثى عبر الوشم الثورة ضد الإلهي الماورائي، بل محاولة الارتقاء إلى المستوى الإلهي وذلك بتفريغ الجسد وتبديد قواه، ثم إن الوشم أيضا امتلاك للجسد المرغوب فيه أليس السيد يشم العبد لامتلاكه؟ والوشم كذلك تحويل للجسد الأنوثي إلى خارطة بصرية يقرأها

¹ المرجع نفسه، والصفحة نفسها

² نشيد الأنشاد 1 : 2

³ نشيد الأنشاد 2 : 3

⁴ نشيد الأنشاد 3 : 4

⁵ راجع نشيد الأنشاد 1 : 14 ونشيد الأنشاد 8 : 6

⁶ إبراهيم محمود، وإنما أجسادنا، ص35.

الذكر فتهتزّ جوانحه وتتحرك لأن جسد الأنثى قد تحوّل إلى فضاء شهوي يغري العاشق بالانجذاب إليه، خصوصاً أنّ الوشم تفوح منه رائحة ذكية لذلك غدت الحبيبة عطراً أشدّ من كل العطور¹. فتلازم الوشم مع العطر الذي استحال سلاح الأنثى للإيقاع بالذكر، إذ بالعطر تفصح عن أنوثتها وتخرق دائرة الرجولة خصوصاً وأن الطيب هو بالرجل ألصق وهو للمرأة عورة. ولكن الأنثى إذ تتطّيب تفرض سلطتها على الذكر فتساومه على العطر الذي "يغدو ساحة للصراع القيمي باعتباره فتنه إلهية"². وهكذا تزج الأنثى العاشقة بسلامان المعشوق في بوتقة الشرّ زجا لأنها تجبره على إتيان المحرم عبر الوشم والطيب الذي جعل منها شهوة قابلة للاختراق والاستهلاك.

غير أن المتصفح لـ "إنجيل متى" يتنبه إلى أن الشرّ يتبدّى من خلال الرقص في تجربة سالومي ابنة هيرودس. إذ اهتز جسد هذه الأنثى أمام هذا الملك ليستثمر قواه في تحقيق غايتين : أولاها إثارة شهوة الملك وثانيهما الكشف عن إمكانات جسدها، إذ بالرقص تتجاوز الأنثى حقيقة جسدها المادية ليستحيل فضاء تتصارع فيه انكساراتها وآلامها وآمالها، فتموّه وتتكرّ حتى يضحي جسدها قناعاً يخفي الرغبة في الانتقام والقتل. إنّ الرقص كان مطية الأنثى لإخفاء ماهو غير مرغوب فيه لأنه يهدد المنظومة القيمية داخل مجتمعتها، وبذلك تحوّل الرقص من حركة مرئية إلى سلوك سادي عدواني يعكس صراعاً دينياً بين يوحنا المعمدان الذي يمثل سلطة الحق وبين الأنثى المارقة عنها.

فالرقص بهذا المعنى يغدو سياسة يطمح من خلالها الجسد إلى تحقيق توازنه مع الواقع وهو اعتراض صامت وتمرد على السائد (يوحنا المعمدان). لذلك كان جسد الأنثى حاملاً عبر الرقص سرّ الحياة والموت معا إذ هو منعطف الإيروس (Eros) حين يوقظ شهوة الذكر ومنعطف التاناتوس (Tanatos) حين يقطع رأس يوحنا المعمدان وكلاهما مؤذن بالفساد والشر. لأنه بالرقص راهنت الأنثى على اختراق المألوف والثورة على الجسد الانضباطي لكنها سقطت في بوتقة الشرّ من حيث لا تدري إذ استحالت قوّة مدمرة.

¹ انظر نشيد الأنشاد 4 : 10

² إبراهيم محمود. وإنما أجسادنا، ص 47.

❖ الإغراء والخمرة: تتجلى هذه الصورة للإغراء كأوضح ما يكون في تجربة لوط مع ابنتيه . إذ تتآمر البناتان على أبيهما فتسقيانه الخمرة لتضطجعا معه وتنجبان أبناء¹. واللافت للانتباه في هذه القصة أن سلاح الأنثى في صناعة الشر كان الخمرة، فهي السائل العجيب الساحر الذي كان لابدّ منه لذهاب عقل الذكر (الأب) وإتيان الفاحشة، لأن الأنثى (البناتان) توطّن النفس على أن تكون الرّحم الخصب المنجب للنسل وإن كان منكرا ورجسا.

لقد سقت الأنثى الذكر الخمرة فأذته وآلمته وحجبت عنه منطق الدين والقيم والعرف بأن تزوجت زواجا محرما فاسدا. فالشرّ في تجربة لوط مع ابنتيه كامن إذن في فكرة الرّهق أي غشيان المحارم من شرب الخمر وبذلك تنقفي المواضع الدينية العرفية لتحلّ محلّها مواضع خاصة تندّد عن منطق العقل والدين وتتأبى على صرامتهما، هي تلك مواضع الأنثى التي تبارك الفساد وتنحرف عن النظام لتسود الفاحشة.

✓ الغيرة والحسد (La jalousie)

تمثل قصة ساري مع هاجر نموذجا باهرا لمعنى الغيرة. إذ يعثر متصفح الأصحاب السادس عشرة من سفر التكوين أن ساري قد تملكته الغيرة حين أحست أنها أرض بوار وأنها الأنثى العقيم التي لا تنجب وأن الجارية المصرية هاجر "الرحم المستعار" (La mère porteuse) الذي سينجب والذي سيبعث في الجسد الراغب إبراهيم رغبة لا تقاوم فيتنسّم معها غمرة الحب.

فعلة الغيرة إذن مردّها خوف ساري من أن تأخذ الأمة التي باركتها لإسعاد زوجها بمجامع قلبه، فغيرتها حينئذ غيرة حب (Jalousie amoureuse). لذلك انقلب حبها لإبراهيم من حب إثاري (amour oblatif) إلى حب استثنائي (amour captatif) ولد الغيرة، واستحال حبّ ساري لهاجر كرها نسفت به وجود الموضوع المرغوب فيه هاجر بماهي رمز للخصب والنسل وأنكرت قيمتها لتخضعها إلى أناها الذي يرى في حب إبراهيم ضربا من التملك له في كليته. بل إن الأنثى العاشقة الغيورة ساري صارت تعيش صداما مع واقع لا يستجيب

¹ التكوين 19 : من 30 إلى 38

لطموحاتها في تجربة العشق إذ باتت تحدث نفسها أن إبراهيم لم يعد يعشقها بل صار يرغب في سواها، في هاجر.

✓ الخداع (L'hypocrisie)

الخداع وجه من وجوه التحيل وهو في أصل معناه " إظهار خلاف ما تخفيه"¹ وهو أيضا الختل والفساد والمراوغة والتلون في الخُلُق إذ يقال " خُلُق فلان خادع إذا تخلق بغير خُلُقهِ"²، والخداع هو مواراة الشيء وإخفائه ف" خدعت الشيء وأخدعته أي كتمته وأخفيته"³. وتكاد هذه المعاني تحضر برمتها في شخصية رفقة زوجة إسحاق إذ يقف متدبر الأوصاح السابع والعشرين من "سفر التكوين" على مقطع قصصي يفيض فيه المدون الحديث عن أنثى استغلت ضعف بصر زوجها فاسترقت السمع والتقطت حديثه مع ابنه عيسو لينال البركة، وأمرت ابنها الأصغر أن يسارع حتى يكون الأسبق في نيل البركة ونالته ثياب أخيه الفاخرة "وَعَطَّتْ يَدَيْهِ وَمَلَأَسَتْ عُنُقَهُ بِجِلْدِ الْجَدْيَيْنِ"⁴ لأن يدي عيسو كانتا مشعرتين⁵. فانطلت الحيلة على إسحاق ولم يكتشف المؤامرة التي دبرتها زوجته رفقة إلا حين أتى عيسو، وبادر بتقديم أطعمة لأبيه لنيل بركته ففوجئ الأب بمكر أخيه لكئه توَعَدَه بالقتل على يدي أخيه عيسو.

سنام الأمر إذن أن رفقة أحكمت لعبة الخداع على نحو مذهل عن طريق اللباس/ القناع لأن القناع "حقيقة مراوغة تدعي القدرة أكثر على منح الجسد طاقة سيطرة على فاعليته النسبية وهو في حدوده الطبيعية ومضاعفتها"⁶، ورفقة استطاعت أن تطوع جسد يعقوب فتهيئه لوضع جديد رغم محدودية قواه. لقد كان القناع السلاح الذي لابد منه لترسيخ التناغم بين الابن (يعقوب) وأبيه (إسحاق) ولتمكينه من نشدان المستحيل وهو الحظوة عند الأب ونيل البركة بتكثير الرب لخيراتِه ونعمه وسجود القبائل له وسيادته على إخوته⁷.

¹ ابن منظور، لسان العرب. مادة "خدع"

² المرجع نفسه

³ المرجع نفسه

⁴ التكوين 27 : 16

⁵ التكوين 27 : 24

⁶ إبراهيم محمود، وإنما أجسادنا، ص 115.

⁷ التكوين 27 : 28/29

إنّ منتهى ما كانت تصبو إليه الأنثى ههنا إخفاء محدودية جسد يعقوب ليظهر فاعليته ويوهم باللامرغوب فيه ، وهي بذلك فكّكت هذا الكيان وبعثرت قواه لتنحت معالمة من جديد وفق هواها وترغمة على الطقس الذي تروم تشييده عسى أن يؤكد حضوره ويعلي من قيمته. لكنّ هذا الجسد سيتحوّل إلى ساحة رهانات وفضاء صراعات بين الأخ وأخيه. إذ جرّاء الخداع سيستحيل يعقوب الجسد الضحية والجسد الطريد.

✓التحيل (La captation)

قد لا يختلف الخداع عن التحيل والاحتتيال الذي يعني الدهاء حتى أنه يقال للرجل الداهية "إنه لحولة من الحول أي داهية من الدواهي"¹ ، والتحيل هو أيضا "الحقّ وجودة النظر والقدرة على دقة التصرف"² وهو كذلك "مطالبتك الشيء بالحيل"³. وتعتبر قصتا دليلة وأستير من أهم النماذج التي جسدت هذا الصنف من السلوك الشرير.

ويلاحظ متصفح "سفر القضاة" أن الأنثى دليلة قد خدعت شمشون حين أوهمته أنها تحبه وأخفت تآمرها عليه لصالح الفلسطينيين. فاستغلت شغفه بها مجبرة إياه على الاعتراف لها بسرّ قوّته حتى يتمكن الفلسطينيون من كسر شوكته في ثلاث محاولات لكنّها باءت بالفشل. لذلك استاءت الأنثى وأعادت الكرة للمرة الأخيرة مذكرة شمشون الذكر بعشقه إياها فهي المبادرة بالقول: "كَيْفَ تَدْعِي أَنَّكَ تُحِبُّنِي وَقَلْبُكَ لَا يَنْقُ بِي؟ قَدْ خَدَعْتَنِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَلَمْ تُطْلِعْنِي عَلَى سِرِّ قُوَّتِكَ الْعُظِيمَةِ"⁴.

فالأنثى ههنا تتخذ من اللغة ومن العبارة (تحبني / تثق بي) سلاحا للحجاج والإقناع بصدق نواياها. وهي تنتصر لخطاب العشق الغزل كي تتحيل على الذكر فتخلخل كيانه من الداخل إذ العبارة ترشح لذة لأنها باغتته فسحرتة لذلك سقط صريع الهوى وأحاطها خبرا بسرّ قوّته فكان مآله الأسر والسجن ثم الانتحار. هكذا

¹ ابن منظور، لسان العرب، مادة "حيل"

² المرجع نفسه

³ المرجع نفسه

⁴ القضاة 16 : 15

إذن استطاعت دليلة الحصول على مبتغاها من الذكر شمشون بالحيلة وبسحر اللغة فكانت الصيادة الشريرة التي ترصدت طريدها لأنها ضعيفة و"الضعف يجعل الشر ممكناً"¹.

✓ القتل (L'assassinat)

تجلى القتل أسلوباً من أساليب الشر كأوضح ما يكون في أنموذجين أنثويين هما أستير وإزابيل زوجة آخاب. أما عن الأولى فيذكر "سفر أستير" أن الأنثى قد قتلت هامان خادم الملك أحشوريش من أجل تأكيد مصالح شعبها اليهودي بعد أن تحاللت على الملك فتعلق بها وأحبها، وصار لا يرفض لها طلباً حتى أنه سمح بصلب هامان وقلته ابتغاء مرضاتها. فكان هامان الضحية التي لا بد منها وكان موته شراً لأنه يتصادم ومصلح أستير.

فالقتل إذن كان ضرورة ملحة حتى تفعل الأنثى سلطتها وتسيطر على الجسد السياسي (الملك) وتقرّ نظامها الأفضل الذي يدعم مصالح اليهود، والقتل كان سلوكاً عدوانياً حتى تثبت به الأنثى ذاتها لأن بداخلها نقص لا بد من سدّه لنيل الكمال، ولا كمال إلا بالشر حتى تضمن خلاص شعبها، لذلك انبرت تستثمر جسد هامان وتطوّعه لضروب من الإكراهات كالسجن والصلب ثم القتل حتى تشطبه فتؤمن وضع اليهود ويذيع صيتهم، فكان الإخفاء والدهاء وافتعال الملق الدائم القوانين التي ينبغي على الأنثى أن تلتزم بها حتى تقرر حقيقة الشرّ.

أما إزابيل زوجة آخاب فقد كانت أنموذجاً متميزاً للعنف والقتل لما دبّرت مكيدة تخلصت بها من غريم زوجها نابوت اليزرعيلي عندما أبى أن يبيعه كرمه. فأقامت شاهدي زور لـ "يَشْهَدَا أَنَّ نَابُوتَ جَدَفَ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى الْمَلِكِ"²، لذلك أخرج من المدينة عنوة ورجم حتى الموت ظلماً وبهتاناً واستولى بذلك آخاب زوجها على ملك خصمه.

فالأنثى ههنا كانت ترعى الشرّ حينما صادرت جسد نابوت وأعدمته زوراً وكان العنف سلاحها، ولكنه عنف ما كان ليأتي أكله لولا دهاء الأنثى وإغواءها لآخاب

¹ بول ريكور، فلسفة الإرادة: الإنسان الخطاء، ترجمة عدنان نجيب الدين، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 2003 ص 210.

² ملوك الأول 21: 10

الذي "بَاعَ نَفْسَهُ لِارْتِكَابِ الشَّرِّ فِي عَيْنَيْ الرَّبِّ"¹ والأنثى أيضا كانت ترعى الشرَّ حينما تعسّفت على الضحية نابوت وألغته واقعا وكيانا حتى تثبت واقعا بديلا هو واقع آخاب وفق منطق القوة. ولكنها إذ رسّخت هذا الواقع اصطنعت لنفسها صورة المحبة لزوجها والمؤذية لغيرها في آن واحد.

● خاتمة

لقد كانت الأنثى في مدونة "العهد القديم" مثالا باهرا للسوء والفساد، فكان الشرُّ طبعاً متأصلاً فيها إذ راوغت ووارت وداهنت وكذبت وخدعت وتحيلت وزنت وقتلت لتفتعل في الظاهر صورة لنفس فضيلة نزيهة، ولكنها تخفي في أعماقها سلوك الشرِّ الذي أحكمت نسجه عبر وسائل التدمير التي اصطنعتها لنفسها كالإغواء والإغراء والغيرة والخداع والتحيل والقتل. فكان الجسد الفاعل الشاهد على مكر الأنثى ودهائها وكان اغتراب العقل وتشظيه في سبيل تثبيت غريزة التدمير هو النظام المستبد الذي آمنت به الأنثى، ذاك النظام الذي لا يبقى ولا يذر، لأن إمكانات الأنثى محدودة فهي تبطن ضعفا لا سبيل إلى تغطيته إلا بالسوء، لذلك راحت ترعى الشرَّ وتتفنن في آدائه عسى أن تحقق توازنا مع عالمها الذي تعيش، عالم الذكورة. غير أن تفننها ذاك جعلها - ومن حيث لا تدري - منتجة لخطاب عن الشرِّ مبشرة بصوره، ثم إن هذه الصورة الفظيعة للمرأة التي رسم ملامحها النص الديني اليهودي ستثبت احتقار المرأة بل إن دونية الأنثى ستتناقلها المسيحية ثم الإسلام خصوصا في مدوناته الفقهية، وسيتوقف عندها القاص والأديب محترزا من الأنثى منبها إلى خطورتها ولعلّ تصنيفي "الاحتراز من مكائد النسوان"² لعلّي بن عمر الأبوصيري (ت. بعد 900 هـ) المعروف بابن البتنوني و"ابتلاء الأخيار بالنساء الأشرار"³ لإسماعيل بن نصر بن عبد المحسن السلاحي المعروف بابن القطعة من أهم الآثار التي يمكن سوقها في هذا المضمار.

¹ ملوك الأول 21 : 25

² تحقيق محمد التونجي، دار أمواج للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت/ لبنان، الطبعة الثانية، 1989

³ تحقيق رياض مصطفى العبدالله، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1413 هـ